

الثقافة العربية الإسلامية والآخر

أ.د / عبد الله التطاوى (*)

حين تُوصف الثقافة بالعربية فهي تضم بين جوانحها العلماء والرواد والشوامخ الذين أسهموا في بنائها، من مسلمين ومسيحيين ويهود وغيرهم، وحين تُوصف بالإسلامية، فهي تضم العرب وغير العرب ممن شاركوا وأصلّوا للفكر، بصرف النظر عن عروبة المولد، بقدر ما طُرح من معيارية عروبة الثقافة والنشأة التي ضمت الأعلام من أمثال البخاري، والسمرقندي، والفارسي، والجرجاني، وغيرهم.

وهذا الوصف -بهذا الانساع- تميّز وميّز تلك الثقافة بقدر ما غيّرت به الدعوة الإسلامية ذاتها من نشر منظومة القيم العليا، التي نهضت على أساسها حياة الأمم والشعوب في احترام حقوق الإنسان، وتوصيف واجباته بدءاً من القيم العقلية والإنسانية إلى منظومة الروابط الروحية والعقدية التي شكلت بنية المجتمع الجديد في نمطه الحضاري الراقى.

وليس من قبيل المبالغة أن تكون الثقافة الإسلامية مؤسسة لفكرة الدولة والأمة بديلاً عن فكرة القبيلة والعشيرة، وأن تطرح مبدأ التوحيد بديلاً عن الشرك والوثنية، وأن تجد على أيدي أهلها من القدرة على الانتشار والإقناع ما انتشرت به عبر أرجاء الأرض شرقاً وغرباً، حتى أصبحت الأمة الإسلامية قادرة على البقاء في ظل حركة ارتقاء العلوم التي تكلمت بالعربية على مدار ثمانية قرون من عمر الزمان، في علوم: الطب، والكيمياء، والرياضيات، والفلك، والحكمة، والفلسفة، والأدب، على غرار ما عُرف عن ابن سينا، والرازي، وابن حيان، والخوارزمي، وابن الهيثم، وابن النفيس، والكندي، والفارابي، والجاحظ، وغيرهم كثير.

ويبقى السؤال المحوري قابلاً خلف تلك الأسس والأصول التي ارتضتها الثقافة في برامج التعامل مع الآخر، بما يمكن رؤيته من عدة زوايا:

(*) نائب رئيس جامعة القاهرة.

أولاًها: احترام مبدأ الحرية وقبول الآخر، بعيداً عن التعصّب والتشدد والانغلاق؛ الأمر الذي تبدّى في التزام الأمة بالقيم السياسية التي رسّخها الرسول الخاتم ﷺ بين أجيال الجاهلية من غلاظ القلوب والعقول من عبّاد الأصنام، حيث تحمّل كثيراً من أذاهم، وصدع بما أمر به، وأعرض عن الجاهلين، وكفاه ربه المستهزئين منهم، وانطلق يصدع بأمر ربه وينذر عشيرته الأقربين، ويخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، بما يدل على كيفية تعامله مع الآخر من منطلقات محددة، منها: الجدل بالحسنى، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والميل إلى السلم والشورى، والتوكل على الله، والصفح والعفو في مواطن القوة والقدرة، عدم الإجبار أو القهر على الدخول في الدين بدليل ما رشحه الخطاب القرآني من حريسة المعتد «وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ» [الكهف: ٢٩] «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» [القصص: ٥٦] . فكان المطلب الوحيد له ﷺ من القوم أن يخلّوا بينه وبين الناس لنشر الدعوة فحسب.

وبدأ الآخر عند رسول الله ﷺ موضع قبول حتى على علاته وعدوانه وأخطائه، أو على صوابه ورجحان أدائه، فكان لسلمان الفارسي من آل البيت منزلة على حد قوله ﷺ، وكان صهيب الرومي، وكذا بلال الحبشي، وحتى من الشعراء من كان على طراز حسان الذي شرف بنسبته إلى الرسول ﷺ، فلم يتم الحجر على الآخر من قبل الدعوة أو رفضها، بدليل تناقضات ردود ملوك الأرض - وقتئذ - بين رد المقوقس والنجاشي وقيصر في اتجاه، وبين رد كسرى فارس في الاتجاه المضاد. ومع هذا صمدت الدعوة واجتهد الرسول ﷺ في الإبلاغ عن ربه حتى ظهر دينه وملاً الدنيا ولو كره الكافرون.

وتتسع صورة الآخر في معاملة الرسول ﷺ للأوس والخزرج ونصارى نجران، و اتساع الدائرة بينه وبين الكافرين لكي لا يعبد ما يعبدون، وهو ما انتهجه خلفاؤه -رضى الله عنهم- وضرب بينهم مثلاً موقف عمر من العهدة العمرية لأهل إيليا وما كان من تخوفه من أن يملك المسلمون الأرض والقصور على حساب الآخر في الأقاليم

المفتوحة، فأمرهم ألا يمشوا أكثر من أربعة أشهر حتى لا يمنحهم حق التملك ودوام الإقامة، وكان الولاة أسوة في المسلك النبوي والعمرى على غرار ما أعطاه عمرو بن العاص من الأمان بمصر للربان وأديرتهم ومقدساتهم.

الثانية: تقدير قيمة العقل وفتح أبواب الاجتهاد، وتشجيع التدبر والتأمل ومراجعة أسرار الكون، فكانت فواصل الآيات القرآنية داعية إلى هذا القرآن الدائم بين التدبر والفكر والعقل، وكذا كانت دعوتها في ربط الإيمان بالعمل، فكان تكريم أولى الألباب وأولى النهى، كما كان تكريم المؤمنين العلماء العاملين ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

ذلك أن قيمة العقل تحترم في الإنسان إنسانيته، حيث تتأكد من خلاله مساحة الحرية في علاقته بالآخر، دون حجر عليه، أو تعطيل لملكاته، أو رفض لقبوله، لاسيما إذا ارتهن الأمر بمطالب الاجتهاد، فكان للمجتهد أجره إذا أخطأ، وكان له أجران إذا أصاب، وكان للاجتهاد في الإسلام مقومات الاحترام في التفرقة بينه وبين الشطط، أو النزوع إلى الفوضى، أو افتقاد المسئولية بما يجنى بالتأكيد على حدود حرية الآخر، ولنا أن نتصور - جـداً - أن ينطلق كل فرد من حرية مطلقة دون مراعاة لحرية الآخرين لنرى الفساد يملأ العالم بلا حدود.

ومع الاجتهاد جاءت دعوة موسعة إلى اختراق كل أبواب العلم، مع دعوة مطلقة إلى عدم تعطيل ملكة العقل، التي سخر الله بسببها الكائنات للإنسان منذ استخلقه في الأرض لإعمارها ونشر الخير فيها، وتدخلها دعوة دائمة إلى المعرفة زماناً من المهد إلى اللحد، ومكاناً تطلب في أقاصى الأرض، ودينياً ترقى بطلب العلم إلى حد الفرائض.

الثالثة: حقوق الآخر أياً كان معتقده ودينه في أن يعيش آمناً، حتى لو كان مشركاً إلى غير ذلك من صور التعامل الحضارى مع أهل الأديان، بما بينها من حوارات حول الأصول والثوابت عبر مصادرها السماوية وقيم العبودية للخالق، وصدق المعتقد بعيداً

عن صراعات المذاهب وصدام الأفكار التي انطلقت من جراء فوضى البشر، وتمتد حقوق الآخر في الثقافة العربية الإسلامية على اتساع دوائرها، بدءاً من حق الجوار إلى حقوق السلام والتعايش، إلى ما يكملها من أطر التعامل في دوائر التسامح والصفح والمساواة والإخاء، إلى تفاصيل كثيرة التفت حولها الأديان في دوائر المشترك، بما يضمن للبشر سلامة مجتمع التنمية والرخاء بعيداً عن الحروب والتصادمية، وبمناى عن التشردم والانقسام.

وتظل حقوق الآخر محفوظة في أن يسلم من كل صور أذى غيره لساناً أو يداً، وأن يحتمى من بوائق السفهاء، وأن يأمن على حياته ودمه وعرضه، وأن ينال حقوقه دون بخس أو عدوان، وأن يؤدى واجبه دون قهر أو امتهان.

الرابعة: احترام الروابط الروحية الجامعة بين البشر من خلال مبدأ الوحدة والتنوع، فقد خلقهم الله من أصل واحد، وأرسل إليهم أنبياء ورسالاته وحيّاً من باب الابتلاء والاختبار، فكان قانون الفكر العربي الإسلامي مستقماً مع هذا المنطق الرفيع منذ أوجزه الرسول ﷺ في خطابه الديني في حجة الوداع «أيها الناس.. إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم..»، وعليه كان التطبيق العملي المؤكد للدعوة القرآنية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وبين النص القرآني والنبوي تناسق وتناغم في سياق دعوة صريحة إلى احترام المشترك الإنساني، وتقدير معايير الاختلاف، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]، ولكنه شاء أن يدفع بعضهم ببعض ليبلوهم بالخير والشر، وهذا هو المحك في التعامل الإنساني مع منظومة القيم العليا وما دونها من قيم أخرى مغايرة من تلك الزوايا الأربع، وما يكملها من تفاصيل، جاء مشروع الثقافة العربية الإسلامية في التقائها مع الآخر تفاعلاً وحواراً دون افتراق، منذ قدرت مدارس الاختلاف بين أهل النص وأهل الرأي، وعلماء المتن وعلماء السند

والرجال، إلى مدارس غيرهم من اللغويين والبلاغيين والنقاد والمؤرخين، إلى قضايا القدم والحداثة، إلى تقبل صراعات الفكر في صورها الجدلية الكلامية، إلى ما صاغته تلك الثقافة من رحابة وموسوعية لم تعترف بحدود الأجناس، ولا تباين المذاهب والأديان، إلى ما مثله أقطابها الكبار من تكامل معرفي وتجلي في إنتاج العلوم، فكان ابن سينا -مثلاً- طبيباً ومفكراً وفيلسوفاً وأديباً ومؤرخاً وشاعراً في آن واحد، وكذلك كانت موسوعية الجاحظ بين أدباء عصره الأمر الذي يشف عن رحابة تلك الثقافة في الإلمام من كل العلوم بأطراف، معمقة بقدر ما شفت عنه من أصالة وعراقة وعمق في قبول الآخر جدلاً وحواراً وثاقفاً وأخذاً وعطاءً.

ويبدو تجانس دار الحكمة بجناحيها بين علوم الأوائل وقلم الترجمة شاهداً أميناً على تلك الازدواجية الثقافية التي قامت على تحدى فكرة الخطوط الفاصلة بين ثقافات الشعوب إلى اتخاذها بوتقة وذوقاً ثقافياً رائعاً، شارك فيه النصراني والمجوسى واليهودى دون ريبة أو توجس، بقدر ما شارك فيه غير العرب من كل أنحاء الأرض دون قهر أو جبر بقدر ما أتيح لهم جميعاً من حرية العطاء وكفالة المشاركة.

أما ظهور بعض أصوات سفهاء القوم من حين إلى آخر، فى محاولة النيل من الأديان، فهى أشبه بالحركات الاستعمارية التى وصفها الراحل العظيم د. جمال حمدان بالجملة الاعتراضية فى تاريخ الشعوب، ليظل الحق ماثلاً لأهله، وهو ذاته منطق الأديان التى تبقى ولو كره الكافرون، ويذهب منطق السفهاء هباءً متثوراً كما ذهبت حركة القرامطة والزنج وغيرها من تجاوزات جاءت على حساب الأديان، فانتهت وزالت وبقيت الأديان، وبقيت حواراتها خالدة باعتبار الصلاحية والقداسة وضمن خير الإنسان فى علاقته الإيجابية بأخيه الإنسان.

ثم يبقى فى مفهوم الآخر مع ثقافتنا عدة أوراق متداخلة إذا وضعنا فى الاعتبار تلك المشاركات العلمية الرائعة التى أفاض بها غير العرب وغير المسلمين، فدخلوا فى نسيج

الأمة تاريخاً وفكراً وإبداعاً، ليبقى الآخر خارج سياق النسق الثقافي العربي الإسلامي بما يحتاج إلى تصحيح المفاهيم وتوصيل الرسالة على عدة أسس، منها:

١- تعزيز فكرة المشترك الثقافي والإنساني من منظور الوحدة والتنوع، دون اجترأ أو تجاوزات في المساس بالهوية أو تهमيش الكيانات القومية، ودون استعلاء على الآخر ذاته.

٢- تقدير أسس الحوار ومنطلقاته وأصوله من منظور المرونة والتفاعل ودرجات القبول والأخذ والعطاء دون توقف أو انحصار.

٣- تحديد مفاهيم التطوير والتحديث وبرامج الإصلاح بحبيثاتها وارتباطاتها بصدورها من الداخل، دون فروض أو تبعية من قبل الآخر بما يضمن صحة التعايش الإنساني بين شعوب الأرض دون تغليب منطق القوة أو الحروب على منطق السلام والمشارك والحوار في صورة الإنسانية الرفيعة.

